

مقدمة

فلسطين

أَرْضُ الرَّسَالَةِ الْإِلَهِيَّةِ

بِقِطَاعِ

دكتور عبد الصبور شاهين

دار التراث



فِلَسْطِينُ
أَرْضُ الرُّسُلِ الْإِلَهِيَّةِ

هذه ترجمة كتاب

PALESTINE

Terre des messages divins

تأليف المفكر العالمى المسلم

رجاء جارودى

ترجمه، وعلق عليه وقدمه وصنع فهارسه
دكتور / عبد الصبور شاهين

جميع الحقوق محفوظة

لدار التراث

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

رجاء جارودي

فِلِسْطِين

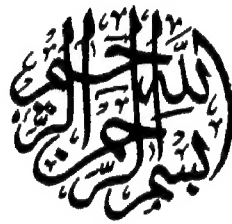
أَرْضُ الرَّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ

ترجمة وتعليق وتقديم

دكتور عبد الصبور شاهين

مكتبة
دار الشرائع

٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة



مقدمة المترجم

دكتور عبد الصبور شاهين

لم أقرأ هذا الكتاب باعتباره عملاً رائعاً من أعمال المفكر الفرنسى المسلم رجاء جارودى، وإن كان كذلك، بل ما أظن أن أحد كتبه السابقة يفوق فى الروعة هذا الكتاب.

ولكنى قرأته باعتباره صرخة مدوية فى سكون ليل بهيم... انفجاراً هائلاً فى قرية ساكنة نائمة... صخرة ضخمة ألقىت فى بركة راكدة آسنة.

ذلكم هو شأن هذا الكتاب: (فلسطين: أرض الرسالات الإلهية) - الذى ينشر باللغات الثلاث: الفرنسية والعربية والإنجليزية، فى وقت واحد تقريباً. فلعل سكان القرية النائمى أن يُدْعَرُوا، وَيُهَبَّأُوا من رقادهم المريض، يشعلون النيران ليتبينوا موقع الانفجار، ومركز الزلزال، فإذا لم يدركوا منه هذا المعنى فلا أقل من أن تضربهم الدوامات التى أحدثتها الصخرة، فتہيج حواسهم روائح العفونة فى المستنقع الآسن من حولهم، ولعلمهم يستيقظون. لست أبالغ فى تصوير ما سوف يحدثه نشر هذا الكتاب فى عالمنا العربى الذى أحال فلسطين إلى قضية يدور حولها، ولا يخوضها، أو لا يبالي بها، حتى أصبحت مواقف هذا العالم فيها لا تخرج عن مجموعة من التعبيرات المسكوكة التى يتداولها الناس، مثل:

أنا، وبعدى الطوفان!! (أنانية)
 شىء أحسن من لا شىء!! (انتهازية)
 أنجُ سعد، فقد هلك سعيْد!! (جبن وهروب)
 جعجعة ولا طحن!! (متاجرة)

وربما كان في قاموس العربية وعامياتها ما يعبر عن هذا الموقف العربي المهلهل بصورة أدق، ولكنّ كلاً من هذه التعبيرات يصدق على جانب عربي أو آخر، لا يفلت منها سوى القليل، وأولهم ذلك الشعب الفلسطيني الصامد، الذي يتحمل بالنيابة عن العرب كل ضروب العسف والهوان، وهو يجد وطنه يختفى كأنه قمر يتوارى في لحظة خسوف.

ولا ريب أن لكل بلد عربي مشكلاته الخاصة التي تطفو على السطح، وتتقدم على فلسطين في قائمة اهتماماته، ولكن النظرة الفاحصة تكشف عن أن جميع ما تواجهه الأوطان العربية من مشكلات ناشئة عن مشكلة فلسطين أساساً، فالتشاغل بالقضايا المحلية عنها هو في أدنى حالاته سذاجة وغفلة، وهو في أعدل حالاته تأمر وخيانة، ولا شيء فوق هذا سوى الانتحار المادى، بعد الانتحار الخياني الأخلاقى.

لقد نجح الاستعمار وإسرائيل حقا في إحداث مجموعة من الأعمال السياسية أغرقت بها الأمة العربية في مستنقع موحل، فأشعلت الحرب بين العراق وإيران، وشغلت سورية بلبنان، وعزلت مصر عن باقي العرب، وأغرقت ليبيا بمعادة جيرانها (مصر، وتونس، وتشاد، وربما السودان)، وانفجر في جنب السودان دُمْلُ الجنوب على أيدي المبشرين وعملائهم، وعادت سورية وليبيا العراق، وحالفتا إيران، وفُتِحَت للمغرب والجزائر جبهة البوليساريو، وزُرِعَ التناقضُ العقائدى بين اليمنين، وتفجرت مشكلة انهيار أسعار البترول للقضاء على أهميته الاقتصادية والسياسية في دول الخليج، وأكلت المجاعة أطرافا من الصومال وجيبوتي وموريتانيا....

فماذا بقى من هذا العالم العربى ليكون شيئا مذكوراً؟!

ومن عجب يبقى شيء اسمه: الجامعة العربية!!

★ ★ ★ ★ ★

لقد قيل مرة في تبرير الصفقة السياسية التي أخرجت مصر من القضية : إن السبب كان تقاعس بعض الدول البترولية عن إمدادها بما تحتاجه لمعالجة آثار الحرب المدمرة لاقتصادها، فكانت هذه الصفقة بين مصر من جانب، وأمريكا وإسرائيل من جانب آخر - رداً على هذا الموقف المتخاذل؟! وسواء صح هذا أم لم يصح (تبعاً للمعلومات أخرى) فإن هذه الدول قد نزفت دم قلبها، وأفراغت خزائنها وأرصدها على الحرب التخريبية بين العراق وإيران، والتي تدور رحاها منذ ست سنوات، ومن أعجب حلقاتها اعتماد إيران المسلمة على إسرائيل في توريد صفقات أسلحة تحتاجها لقتل المسلمين من جيرانها، وهو موقف من التناقض بين الشعارات المعلنة والسلوك الميكافيلي، الذي لا يمكن أن يمر دون أن يلوث الجمهورية الإسلامية بالكثير.

صدقوني، إن الإنسان المسلم لم يفهم حتى الآن معنى لهذه الحرب، التي كان من أبرز نتائجها تثبيت الوجود الإسرائيلي، وزلزلة الوجود العربي.

فإذا تبين أن العرب لم يعد يجمعهم شعور قومي كان بعض زعمائهم يراه أملاً ورابطة، وحلاً ناجحاً لمشكلاتهم - فإن من الضروري البحث عن صيغة أخرى تجمع عرب الشتات المعاصر، ولن تكون هذه الصيغة سوى الإسلام، أي محاولة طرح قضية فلسطين على مستوى العالم الإسلامي، وهو ما يقترحه الأستاذ جارودي في ثنايا الكتاب.

ويتوازي هذا الاقتراح مع توجيه آخر إلى المقاومة الفلسطينية خارج الوطن أن تعمل على تنوير الرأي العام الأوربي والأمريكي فيما يتعلق بخاطر الصهيونية على مصير القارتين، وما ارتكبته من مظالم وتجاوزات، وما صاغته من أكاذيب وافتراءات، وما نسجته من فضائح ومؤامرات، ولو استطاعت المقاومة في مجال الإعلام أن تغير موقف الأمريكيين - مثلاً - ولو بنسبة ضئيلة فإن تأثير ذلك سوف يكون هائلاً على الموقف الصهيوني، إذ تضطر إسرائيل إلى الرضوخ لمنطق الحق والعدل، وهو توجه ذو فعالية أكثر من المعارك الحربية.

إن الخروج من دائرة القبلية الكامنة وراء الفكر القومي أصبح ضرورة حيوية لتطوير الحياة العربية من خلال عقيدة سماوية، وفكر سام.

وإذا كان هذا التصور يلقي معارضة من أنظمة حاكمة فإنه الحل الأمثل في اعتقاد الجماهير للخروج من الأزمة الراهنة، إذ إنه يضيف إلى الثقل الاستراتيجي للقضية مئات الملايين من المسلمين، ذوى العقيدة الصافية، والإيمان الإيجابي، ولا سيما إذا تحركوا من أجل إنقاذ المسجد الأقصى، مسرى الرسول ﷺ ومعراجة.

نعم، إن الاستعمار والههيونية لن يتركانا نتحرك بالإسلام، لاسيما ونحن نعيش تحت وطأة الديون الثقيلة، وفوائدها الربوية الجهنمية، ولكن الصراع بين الواقع والأمل، بين اليوم والغد، بين الحقيقة والحلم - هو الذى يكتب تاريخ الأمم، ويؤلف ملاحمها، فليكن سعيها إلى الإسلام كفاحا من أجل الانتصار على الواقع الصعب بالأمل المتجدد، وتجاوزا لمشكلات اليوم بوعود الغد وأحلامه الكبار.

وتلكم هى معركة الإسلام المعاصر فى رأى الأستاذ جارودى، فهو ينتقد طرح مشكلة فلسطين من منظور قومي، خضوعا لتأثير الأفكار الناصرية، والبعثية عن القومية، وهى أفكار غريبة عن الإلهام الإسلامى للأمة (بمعنى المجتمع الدينى المفتوح).

ولسوف يلاحظ القارىء أن للكتاب موقفا محدداً فى التفرقة بين مفهوم (القومية)، ذى الطابع العنصرى، ومفهوم (الأمة) ذى الطابع الدينى.

يبد أن للكتاب غاية سامية يمشى إليها عبر مجموعة من التصورات المنهجية، فهو لم يقتصر على تعرية جميع أطراف القضية الفلسطينية، ولكنه سبر أغوارها، واستوعب أصولها تاريخيا وسياسيا، ثم وقف فى النهاية إلى جانب فلسطين الإسلام، وفلسطين الأمة التى تقاوم دون استسلام، وقدم فى هذا الصدد ذوب روحه، وخلاصة فكره وإيمانه، ورحيق شاعريته، ومن بين ما قدم لوحة نادرة رسمها لقبة الصخرة، لم يكتبها إنسان من قبل بهذه الشفافية.

إسرائيل والمستقبل

إن القضية الأساسية التي يتعرض لها هذا الكتاب هي قضية المواجهة بين الصهيونية السياسية التي امتطت حصان اليهودية، وبين الإسلام ممثلاً في: (فلسطين: أرض الرسالات الإلهية).

وعلى الرغم من أن المؤلف لم يشأ أن يصرح بشكل حاد بحقيقة هذه المواجهة فإن قارئ الكتاب سوف يلمسها وهو يسير مع فصوله، ولا سيما في جزئه الثاني والثالث، ذلك أن فلسطين ليست إلا رمزاً للعقيدة التي ارتضاها الله للعالمين (الإسلام)، وهذا الإسلام هو الهدف الرئيس الذي عملت الصهيونية المسيحية، وتعمل الصهيونية اليهودية معها على تخريبه ومحوه من الوجود - لو كان ذلك بوسعهما.

ومن الخطأ - في رأينا - أن يتصور أحد أن الشعب الفلسطيني هو المستهدف وحده من هذه الغارة الاستيطانية على فلسطين، لأن فلسطين لا تمثل في الواقع سوى موطئ قدم للزحف القادم على ما حولها من بلاد الإسلام، على امتداد الهلال الخصيب، من الفرات إلى النيل، وهو ما سوف يؤكد الكتاب حين يتحدث عن مخطط الصهيونية الإسرائيلية في التوسع بلا نهاية.

ولسوف يخرج القارئ بفكرة أساسية عن ميثاق هذا المخطط، حين يتابع مراحل تنفيذ بعض فصوله، عبر السنين السود التي عشناها من عام ١٩٤٨ حتى الآن ١٩٨٦ م، فقد أثبت الزعماء الصهاينة التزاماً دقيقاً بكل بنود الميثاق، ما بدا منها ممكناً، وأما ما بدا منها بعيداً عن الخيال في مرحلة من المراحل فإنه قد يقترب منه في مرحلة أخرى، وحينئذ تبادر القيادة الإسرائيلية إلى تنفيذه دون أدنى تردد، أي: إن تنفيذ الميثاق التوسعي يمضي في مساره قدماً، وكأنه قانون رياضي صارم، تماماً كما تمضي الظواهر الطبيعية، لكل ظاهرة إبانها، وكأن المهيمن على خطوط هذا المسار هو فحوى ما جاء في النص القرآني: «ولكل أمة، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة، ولا يستقدمون» [يونس/ ٤٩].

ولسوف يرى القارىء أيضا أن كل ما وقع من أحداث الغزو الصهيونى لفلسطين وما حولها كان من عناصر الحلم الكبير الذى راود خيال مؤسس الحركة الصهيونية، تيودور هرتزل خلال التسعينيات من القرن الماضى (التاسع عشر)، ومازالت بقية عناصر الحلم تنتظر أن توضع موضع التنفيذ، ولا سيما مشروع قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الميت، لتوليد الطاقة الكهربائية من مساقطه، وإغراق شرق الأردن، وربما كان من عناصره أيضا شق قناة بين البحر الأبيض وميناء إيلات، تنافس قناة السويس، وتنبى أهميتها، تمهيداً لتخريب اقتصاد مصر، والإجهاز عليها، واقتطاع أجزاء لازمة من جسدها لترقيع الكيان الصهيونى، وليست سيناء إلا جزءاً من حلم هرتزل الكبير.

أما لبنان وسورية والأردن والعراق فأمرها أهون بكثير، وفى جعبة الصهيونية ومن يساندها من القوى الغربية العديد من المشروعات التقسيمية لإعادة توزيع المنطقة سياسياً وطائفيًا، وإيجاد كيانات يحكمها ملوك طوائف، تمكن إسرائيل من التهام ما تريد من جسد الوطن العربى.

وأما الجزيرة العربية فليست بعيدة عن متناول هذا الأخطبوط، فإن بينها وبين الدولة الإسرائيلية حدوداً مشتركة فى البحر، وهى فى الوقت ذاته مدخل إلى الخليج الذى تنقاسمه أيضا دويلات، ولكن الأمر يحتاج إلى ترتيب على مراحل متقاربة أو متباعدة.

باختصار، إن التخطيط يمشى إلى أوضاع يعجز تصور القادة فى العالم العربى والإسلامى الآن عن استيعابها، وهم غارقون فى بحار التآمر والدم، عاجزون عن حل مشكلاتهم اليومية والجزئية، كما أن بعضهم لا يثبت فى موقعه من الساطة إلا بقدر ما يقدم للعدو من خدمات، وما يرتكب فى حق الإسلام وفلسطين من خيانات.

وحسبنا هنا أن ننقل نص المخطط الصهيوني الذى يمكن أن نطلق عليه :
(بروتوكول صهيون الجديد) ، وهو عبارة عن مقالة نشرت فى مجلة كيفونيم -
حديثا - تتضمن خطوطا تنبئية عن سياسة إسرائيل التوسعية فى عالمنا العربى ،
وعن استراتيجيتها خلال التسعينيات من هذا القرن العشرين ، وقد قدمت المقالة
ابتداء الخطوط العريضة للحرب الباردة بين القوتين العظميين فى فقرة موجزة ،
وإن كانت معبرة ، قالت :

«إن أحد الأهداف الرئيسة للاتحاد السوفيتى هو أن يلحق الهزيمة بالغرب ،
وذلك بأن يملك التحكم فى الموارد الهائلة للخليج الفارسى وجنوب إفريقيا ،
حيث تركزت أغلبية الموارد المنجمية العالمية ، ونستطيع تصور أبعاد هذه
المواجهة على مستوى البسيطة وهى المواجهة التى سوف نعيشها فى المستقبل .
إن نظرية جورشكوف تطالب برقابة سوفيتية على المحيطات ، وعلى المناطق
الغنية بالمواد المنجمية فى العالم الثالث ، ومن الممكن تبعا للمفاهيم الحالية للاتحاد
السوفيتى عن الجانب النووى - شن حرب نووية وكسبها ، والبقاء بعدها ،
وبهذه الحرب يتسنى تدمير القوة العسكرية للغرب ، وتحويل سكانه إلى عبودية
فى خدمة الماركسية اللينينية ، وهذا هو أخطر الأيام على سلام العالم ، وعلى
وجودنا الخاص» .

ثم تأتى الفقرات عميقة المغزى فى هذا المقال ، الذى أصدره التنظيم
الصهيونى ، وهو يكشف عن الرؤى المستقبلية التى تهيم على امتداد الحلم
الدهرى لإسرائيل الكبرى فى تصور الصهيونية السياسية ، وقد جاء فيه :

«إن استعادة سيناء بمواردها الراهنة هدف ذو أولوية ، تحول دون الوصول
إليه حتى الآن اتفاقات كامب ديفيد ، واتفاقات السلام ... وبذلك حرمانا من
البترو ، ومن الموارد التى تصدر عنه ، وتحملنا نفقات باهظة فى هذا المجال ،
ويجب علينا أن نعمل حتى نستعيد الوضع الذى كان فى سيناء قبل زيارة
السادات ، والاتفاق التعيس الموقع معه عام ١٩٧٩ م» .

«إن الحالة الاقتصادية في مصر، وطبيعة نظامها، وسياستها القومية العربية سوف تفتح على موقف يفرض على إسرائيل أن تتدخل... ومصر بفعل صراعاتها الداخلية لم تعد تمثل بالنسبة إلينا أية مشكلة استراتيجية، ولسوف يكون من اليسير أن نردها إلى الوضع الذي عاشته عقب حرب يونيو عام ١٩٦٧م، في أقل من أربع وعشرين ساعة.

لقد ماتت الأسطورة القائلة بأن مصر هي زعيمة العالم العربي... وقد فقدت في مواجهتها لإسرائيل وبقية العالم العربي ٥٠٪ من قوتها، وربما استطاعت أن تفيد على المدى القصير من استعادة سيناء، ولكن ذلك لن يغير تغييراً عميقاً علاقة القوة، فمصر، من حيث هي جسد مركزي، قد صارت جثة، ولا سيما إذا ما أخذنا في اعتبارنا المواجهة التي تتزايد عنفاً بين المسلمين والنصارى فيها.

إن انقسامها إلى أقاليم جغرافية منفصلة يجب أن يكون هدفنا السياسي خلال التسعينيات على الجبهة الغربية، فإذا ما تصدعت مصر على هذا النحو، وحرمت من أية سلطة مركزية فإن بلاداً أخرى، مثل ليبيا والسودان، وما هو أبعد منهما، سوف تواجه نفس الانقسام، فإنشاء دولة قبطية في صعيد مصر، وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ذات أهمية ضعيفة هو مفتاح التطور التاريخي الذي أرجأه حالياً اتفاق السلام، ولكنه محتوم على المدى الطويل.

وعلى الرغم من الظواهر فإن الجبهة الغربية أقل مشكلات من الجبهة الشرقية، وإن تقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم يعطينا مقداً صورة عما ينبغي أن يحدث في مجموع العالم العربي، فتفجير سورية والعراق إلى أقاليم محددة على أساس مقياس عرق أو ديني يجب أن يكون على المدى الطويل هدفاً ذا أولوية بالنسبة إلى إسرائيل، والمرحلة الأولى هي تدمير القوة العسكرية لدى هذه الدول ثم إن البنية العرقية لسورية تعرضها لتفكيك قد ينتهي بها إلى إنشاء دولة شيعية على طول الشاطئ، ودولة سنية في منطقة حلب، ودولة أخرى في دمشق، ثم وحدة درزية يمكن أن تطمح إلى إنشاء دولتها الخاصة، ربما على أرضنا الجولان، وهي متكامل في كل حال مع حوران وشمال الأردن.

إن دولة كهذه سوف تكون على المدى الطويل ضماناً للسلام وللأمن في المنطقة، وهو هدف مقدر في موضع اهتمامنا. » .

أما العراق، الغنى بالبترو، وبالصراعات الداخلية، فهو على خط التسديد الإسرائيلي، فتفكيكه بالنسبة إلينا أعظم أهمية من تفكيك سورية، إذ هو يمثل على المدى القصير أخطر تهديد لإسرائيل، ولذلك، إن حرباً سورية - عراقية سوف تفيد في تدوييه من الداخل، قبل أن يكون بحيث يندفع في صراع واسع ضدنا.

إن كل شكل من أشكال المواجهة بين العرب، بعضهم وبعض هو مفيد لنا، وهو تعجيل بساعة هذا التفجير، ولقد تؤدي الحرب الحالية ضد إيران إلى التعجيل بهذه الظاهرة المعبرة عن الاستقطاب».

«أما شبه الجزيرة العربية فهي مهياة بأكملها لتحلل من هذا النوع، بفعل الضغوط الخارجية، وتلك هي بخاصة حال المملكة العربية السعودية، فإن تعاظم الصراعات الداخلية، وسقوط النظام - هما جزء من منطق البنات السياسية الراهنة».

«والأردن هدف استراتيجي عاجل، وهو على المدى الطويل لن يكون بوسعه أن يشكل تهديدا لنا بعد تحليله، فنهاية ملك حسين، ونقل السلطة إلى أيدي الأغلبية الفلسطينية، هما ما ينبغي أن تتوجه إليه السياسة الإسرائيلية، وهذا التغيير يعنى حل مشكلة الضفة الغربية، ذات الكثافة السكانية العربية، وإن تهجير هؤلاء العرب إلى الشرق في ظرف سلام، أو على إثر حرب، وتجميد نموهم الاقتصادي والسكاني - هما ضمانتا التغيرات المقبلة، ويجب أن نعمل كل ما في وسعنا لتعجيل هذه العملية.

ويجب أن نرفض خطة الاستقلال الذاتي، وأية خطة قد تستتبع تسوية أو اشتراكا في الأراضي، أو تضع عقبة في طريق انفصال الأمتين، وهي شروط لازمة لتعايش سلمى حقيقى.

إن على العرب الإسرائيليين (الذين هم أصلا فلسطينيون) أن يفهموا أنهم لن يكون لهم وطن إلا في الأردن... وأنهم لن يعرفوا الأمن إلا إذا اعترفوا بالسيادة اليهودية بين البحر والأردن.... فلم يعد ممكنا، ونحن ندخل إلى العصر النووي، أن نعمل تكديس ثلاثة أرباع الشعب اليهودى على شريط ساحلى مكتظ، ومعرض للخطر طبعاً.

إن توزيع هؤلاء السكان أصبح أمراً لازماً في سياستنا الداخلية، فهوذا، والسامرة، والجليل - هي الضمانات الوحيدة لبقائنا القوي، فإذا لم نصبح أغلبية في المناطق الجبلية، فإننا نوشك أن نلقى مصير الصليبيين الذين فقدوا هذه البلاد» .

«إن إعادة توزيع المنطقة على المستوى السكاني والاستراتيجي والاقتصادي يجب أن يكون مطمئناً الأساسى، وهذا يقتضى التحكم في موارد المياه في الإقليم، الذى يبدأ من نهر سبع إلى الجليل الأعلى، والذى هو اليوم خال من اليهود» . أهـ .

إن هذا البروتوكول الذى يقرؤه العالم العربى هنا لأول مرة - ربما - قد نفذ بعض بنوده فعلاً، ووضع بعضها الآخر على طريق التنفيذ في إطار مشروع للسنوات الخمس أو العشر القادمة، وهو يكشف بصورة مأساوية عن أن رؤيتنا للقضية الفلسطينية تختلف عن رؤية العدو الصهيونى، اختلافاً جذرياً، وأنها تجهل القضية جهلاً قبيحاً بكل أبعادها، ولم يجد العدو حرجاً في أن يعلن بروتوكوله، فهو لا يخشى أن يتنبه النائمون أو المخدرون من العرب حوله، فسيان عنده نومهم ويقظتهم، وهم في كهفهم يتقلبون !! .

أليست مأساة أن تواجه البلاد العربية المسلمة هذا الوضع الخطير على حاضرها وعلى مستقبلها، ثم لا تهتم أجهزة التربية فيها - من باب الحرص على الاستقلال التربوى، بتدريس عناصر هذه المشكلة، من وجهة النظر الإسلامية، والاستراتيجية؟ ... وذلك بعد أن ثبت أن طرح المشكلة من وجهة النظر القومية، أو الفلسطينية كان هو الفشل بعينه على مدى قرابة أربعين عاماً؟! ..

وإذا كان من أوليات الصراع أن تعرف الأمة عدوها، فنحن أجهل قوم بعدوهم الرابض على صدورهم، في حين أن العدو أدرى منا بما يدور في دورنا!!

وإذا كان من بديهيات الصراع معرفة جذوره فنحن أزهد الناس في معرفة ما يتصل بقصته، ونحن نتعبرف تربوياً، وكأننا نخشى على أبنائنا أن يعرفوا شيئاً من هموم الماضى، التى تصنع من خاماتها مصائب المستقبل! أى: أن التربية غائبة!! .

وإذا كانت مقاومة هذا البلاء لا يمكن أن تكون إلا بسلاح الإسلام فإن بعض حكام المسلمين يخشون هذا الإسلام، ويرهبون عمق تأثيره في الأجيال، فهم يحاربونه، ولو أدت محاربته إلى توحش العدو الصهيوني، وضياح مستقبل الأوطان.

إن هناك مقاومة شرسة من جانب العلمانيين في الأوطان الإسلامية ضد العودة إلى نظام الإسلام، وتطبيق مبادئه العادلة، ولا سيما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، وهذه المقاومة تتمثل في الإصرار على تضليل الجماهير، وإبقائها ضمن دائرة الجهل والعجز، دون أى تفكير في نقلها إلى مستوى من الوعي يبدو خطراً على العلمانية المتحكمة.

إن هذه العلمانية تعيش بلا غد تاريخي أو حضاري، فغدها هو السلطة اللذيذة، وما تتمتع به من ثروات منهوبة، وليكن الإفلاس قدر شعوبنا على أيدي العلمانيين.

من أجل هذا كان لابد من إلقاء ضوء في هذه المقدمة على جذور مشكلة «فلسطين: أرض الرسالات الإلهية» - من الناحية الإسلامية، وقد لاحظنا أن الأستاذ جارودي لم يتطرق إلى هذا الجانب، لأن كل اهتمامه كان منصبا على الجوانب التاريخية، والسياسية، والعقائدية، والحضارية، وله في هذا الصدد موقف متميز قطعاً.

القرآن ومستقبل إسرائيل

إن القرآن في ثاني سورة (البقرة) يخص بنى إسرائيل باهتمام كبير جدا، حيث يقص قصصهم مع نبيهم موسى عليه السلام، ويبين كثيراً من أخلاقهم ومواقفهم العدوانية، ثم يقدم في إيجاز موقفهم من الأنبياء بعامة، ولاسيما الثلاثة الكبار: موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام - على هذا النحو المعبر:

«ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسول، وآتينا عيسى بن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقا كذبتم، وفريقا تقتلون، وقالوا: قلوبنا غُلُفٌ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون، ولما جاءهم كتاب (القرآن) من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين» [البقرة ٨٧ - ٨٩].

فهذه صورة هؤلاء الكافرين من بنى إسرائيل: قتلوا الأنبياء بعد موسى، وكذبوهم، وكذبوا عيسى، حسداً واستكباراً، ثم لما جاءهم محمد مصدقاً لما معهم كفروا به كذلك، فلعنة الله على الكافرين.

ذلكم هو موجز القصة التي نعيش حتى الآن فصولها الرهيبة، بوعى حيناً، وبدون وعى أحياناً، وليس يهمنا أن نتبع حديث القرآن عنهم، فحسبنا أنه يصفهم بأنهم: «أشد الناس عداوة للذين آمنوا» ولكننا نطالع في آيات القرآن بعض خطوط المستقبل الذي يعيننا أن نقدم صورة له، من أجل مزيد من الوعي بالمشكلة:

إن الرؤية القرآنية لمستقبل هؤلاء المفسدين من بنى إسرائيل تتلخص في بضع آيات من سورة المائدة، أولها قوله تعالى: «فما نقضهم ميثاقهم لعناهم، وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم، فاعف عنهم واصفح، إن الله يحب المحسنين» [المائدة/١٣].

ومنها قوله تعالى: «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين» [المائدة/٦٤].

وقوله تعالى: «وإذا تأذن ربك لبيعن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، إن ربك لسريع العقاب، وإنه لغفور رحيم» [الأعراف/١٦٧].

والذى يعيننا فى هذه الرؤية القرآنية أن تتعلم الأجيال أن هذه القومية الصهيونية تتصف بصفات وخصائص مسجلة هى :

- ١ - الخيانة : (ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم) .
- ٢ - ومن مظاهر الخيانة نقض العهد والميثاق مع الله ومع الناس .
- ٣ - ومن لوازمها قساوة القلوب ، والجراة على التحريف والتزوير .
- ٤ - وأنهم يبغضون من عداهم من الشعوب ، نتيجة أنهم يعيشون على البغضاء فيما بينهم ، والعداوة أبداً ، وهى لازمة لهم إلى يوم القيامة (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) . [الحشر / ١٤] .
- ٥ - وأنهم يسعون فى الأرض فساداً ، يقتلون أبرياء ، ويشعلون الحروب ، إمعاناً فى الإفساد ، واستمراراً لغريزة العدوان المتأصلة فى طباعهم .
- ٦ - وأن الله أوعدهم بمن يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، وهو مالا يمكن أن يتخلف ، (وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [الروم / ٥] .

وكل هذه - وغيرها - عناصر تقوم عليها بنية المستقبل المقدور لأبناء صهيون ، وهى تجد مصداقيتها فيما ساقه المؤلف من وقائع تدمغ القادة الصهيونية بالخيانة ، وبالمبادرة إلى العدوان ، ونقض الوعود ، وتحريف المعاهدات بما يوائم أهدافهم التوسعية ، فليس كل هذا السلوك ببعيد عن إعلام القرآن فيما سبق ، وإن تغافلنا عن العلاقة الوثيقة بينهما .

والتاريخ المعاصر يسجل على هؤلاء جرائمهم البشعة ضد شعب كان آمناً بريئاً ، هو الشعب الفلسطينى ، فإذا بهم ينقضون عليه فى وداعته ومسالمتة ، يدمرون وجوده تدميراً شاملاً ، ولقد طوردوا وذبحوا وأحرقوا فى أوروبا ، على أيدى النصارى ، والفاشيين ، فلم يثأروا من ظالمهم ، ولم ينتقموا من قاتليهم ، بل أفرغوا شحنة حقدهم على الضعفاء الآمنين الذين وسعواهم فيما بينهم ، كما وسعتهم الشعوب العربية كلها ، فلم يضق بهم أحد ، ولا عوملوا فى التاريخ الإسلامى إلا بروح الإسلام الحضارية .

وهكذا رد الصهانية الإحسان بالإساءة، والجميل بالقبيح، والوفاء العرى بالغدر والخيانة اليهودية.

وقد جاء في القرآن آيات، في مستهل سورة الإسراء، تتعلق بمستقبل هؤلاء المفسدين، يعني كثيراً أن نتوقف عندها، وهى قوله تعالى:

«وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين، ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأساً شديداً فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولاً، ثم رددنا لكم الكرة عليهم، وأمددناكم بأموال وبنين، وجعلناكم أكثر نفيراً، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإن أساتم فلها، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتيبراً، عسى أن يرحكم أن يرحمكم، وإن عدتم عدنا، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً [الإسراء/ ٤ - ٨].

آيات من القرآن مضمونها العام أن بنى إسرائيل مفسدون بنص التوراة والإنجيل والقرآن، ولكن التدقيق في عناصرها يقفنا أمام صورة محيرة، تكاد تصل إلى مرتبة التشابه الذى لا يعلمه إلا الراسخون في العلم، بما وهبهم الله من قدرة على التأويل:

والعناصر التى نعنيها في الآيات هي:

- ١ - الكتاب، وبنو إسرائيل.
- ٢ - الإفساد.
- ٣ - الأرض.
- ٤ - المرئان.
- ٥ - العلو الكبير.
- ٦ - المرة الأولى.
- ٧ - عباد الله ذوو البأس الكبير.
- ٨ - رد الكرة لبنى إسرائيل.
- ٩ - المرة الأخرى ووعداها.
- ١٠ - المسجد.

عشرة عناصر ، لو استطعنا أن نحدد المراد منها على وجه اليقين لفهما ما يعنيه القرآن بهذا الإعلام العجيب ، وإنما ستأ الحيرة من أن حديث القرآن هنا يتناول قضية عيية تعلق بما قضى الله على (بنى إسرائيل) فى (الكتاب) ، ولا ريب أن المراد بهما هو ما جاء فى الآية الثانية من سورة الإسراء قبيل هذه الآيات : «وآتبنا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا» ، فالكتاب هو (التوراة) ، التى نزل الله على موسى ، و (بنو إسرائيل) هم قبائل الأسباط الاثنى عشر الذين تناسلوا بمصر عقب استقرارهم بها على عهد يوسف عليه السلام ، إلى أن أخرجهم فرعون منها ، ونجّاهم من بطشه على يد موسى عليه السلام .

والصيغة التى اختارها القرآن فى التعبير عن إفساد بنى إسرائيل المتوقع هى صيغة المستقبل المؤكد باللام والنون (لتفسدن) ، بعد قوله (وقضينا) ، فهو إذن إفساد واقع لا محالة .

ولا ريب أن المراد بالإفساد ما يشمل القتل والتخريب للعباد والبلاد ، غير أن القرآن ربط (الإفساد) بـ (الأرض) ، فهل المراد هو الأرض بعامه ، أو هى الأرض الواردة فى قوله تعالى : «ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم» [المائدة/ ٢١] .

ونحن نميل إلى أنها هذه الأرض المقدسة ، لارتباطها بوجود المسجد المذكور فى النص بعد ذلك ، وعليه تكون أداة التعريف للعهد الذهنى ، أى : الأرض التى تعرفونها وتسكنونها ، ونفسدون فيها ، كما أن (المسجد) هو المسجد الأقصى المذكور فى الآية الأولى :

«سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله» .

والسؤال الآن هو : هل كان للمسجد الأقصى وجود قبل الإسلام بهذه التسمية ، أو أن وجوده مقترن بظهور الإسلام ؟ ..

إن الإجابة عن هذا السؤال مرتبطة بتحديد المقصود بعبارة (بنى إسرائيل)، ذلك أن الاستمرار العنصرى لبنى إسرائيل أكذوبة لم يعد لها وجود من الناحية الدموية والعرقية، فقد ذاب هذا العنصر تماماً منذ أجيال بعيدة، ولم يُعد له أثر فى كيان المنتمين الآن إلى إسرائيل مطلقاً، وهو ما يدعوننا إلى أن نرى أن عبارة (بنى إسرائيل) صارت ذات مضمون دينى وسياسى يعين كل من ينتمى إلى موكب الحقد الصهيونى، حتى ولو كان زنجياً إفريقياً، مثل الفلاشا، أو أبيض أوريبا، أو أصفر أسويماً.

ونعود إلى تحقيق كلمة (مسجد)، ومن المؤكد أن هذه الكلمة لم تستعمل فى العربية بهذه الصورة إلا فى القرآن، حين ارتبطت العبادة بالسجود، وقد كان المسجد الحرام يطلق عليه فى الجاهلية: (البيت الحرام)، أو (الكعبة) أو (البنية)، وكانت العبادة طوافاً حول الكعبة لا سجود ولا ركوع، لذلك لم يعرف استخدام كلمة (مسجد) فى تسمية دور العبادة قبل الإسلام، لدى أهل الأديان الأخرى، وإنما عرفت كلمات مثل: (بيعة، وصومعة، وصلاة)، وقد ورد ذكرها فى الآية الكريمة من سورة الحج/ ٤٠: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات»، وذكرت معها (مساجد)، كما عرفت (مضيف) وذكرها القرطبي (١٠/ ٣٧٩)، وشاعت كلمة (كنيسة) مؤنث (كنيس)، بنفس المعنى تقريباً، وفى الصحيحين عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرنا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله ﷺ، فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى يوم القيامة» - واللفظ لمسلم، فهما تتحدثان عن (كنيسة)، والرسول يجيها بتسميتها (مسجداً)، كأنه ترجمة لتسمية بيت العبادة بمفهوم إسلامى، وهو فى رأينا مسلك نبوى مقتبس من القرآن فى قوله فى قصة أصحاب الكهف: «قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً» [الكهف/ ٢١].

وقد كان استعمال لفظ (مسجد) في البداية يقصد به مكان السجود، ثم اتسع استعماله في البناء ليوازي المقصود بكلمة (كنيسة أو بيعة أو صومعة)، ومن هنا جاءت آية الحج بذكر: (صوامع وبيع وصلوات ومساجد)، وقد فرض القرآن هذا التوسع في الدلالة، إذ لم يكن في لسان الناس حتى حادثة الإسراء سوى: (البيت الحرام، أو البيت الأقصى، أو بيت المقدس)، وقد ورد في بعض أحاديث الإسراء: مسجد البيت الحرام، ومسجد البيت الأقصى، ومعناه الواضح: مكان السجود فيهما، فقد ابتدأت رحلة الإسراء من نقطة السجود في البيت الحرام، وابتدأت رحلة المعراج من نقطة السجود في بيت المقدس، وجاء القرآن بعد ذلك بهذا التوسع في دلالة (المسجد) على البناء بأكمله: «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين».

أما قبل الإسلام فعلى الرغم من أن العبادة كانت تشتمل في الأديان المختلفة على الركوع والسجود، فإن كلمة (مسجد) لم تستعمل آنذاك، بل استعمل لفظ (بيت)، كما جاء في القرآن خطاباً لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في سورة البقرة: «طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود» [البقرة/ ١٢٥]، وجاء فيه خطاباً لمريم «يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين» [آل عمران/ ٢٣].

إن هذا الوقوف أمام كلمة (مسجد) يقصد به في هذه المقدمة التوصل إلى أن خطاب القرآن لبنى إسرائيل في قوله: «فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيرا» يَحتمل أحد أمرين:

فإذا كان (المسجد) المذكور هو المسجد الأقصى بعد أن سمي في القرآن: مسجداً - فإن من المرجح أن يكون وجود إسرائيل المعاصر هو مرة الإفساد الأخرى، وهو اتجاه في التفسير يفرض أن لإسرائيل نهاية مخومة على أيدي المسلمين، كما جاءت بذلك الأحاديث، وكما هو نص القرآن في قوله: «وإن عدنا» فستنتهي هذه المرة حتماً، كما انتهت المرة الأولى بتدميرهم، مع وعد بنفس المصير كلما عادوا إلى الإفساد، وصدق الله:

«كلما أوقدوا نار للحرب أطفاها الله، ويسعون في الأرض فساداً، والله لا يحب المفسدين»، [المائدة/٦٤]، «وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب» [الأعراف/١٦٧].

وعليه يستقر أمر العلاقة التي تربط بنى إسرائيل المعاصرين فيما بينهم على مفهوم القومية الدينية والحقن المشترك، حيث اختفى وذاب عنصر الدم والعرقية.

فهم بنو إسرائيل، نعم، ولكن بمفهوم التوجه المشترك إلى الإفساد في الأرض المقدسة.

وأما إذا كان استخدام كلمة (مسجد) في الآية ترجمة لما كان يطلق عليه: بيت العبادة الذي كان مقاما في تلك المنطقة التاريخية، فإن من المرجح حينئذ أن تكون مرّتا الإفساد في الأرض قد مضتا قبل الإسلام، إحداها قضى عليها على عهد بختنصر، والأخرى قضى عليها تيتوس عام ٧٠ م، وكلتاها مشهد من مشاهد الإفساد الكبير الذي ارتكبه بنو إسرائيل في فلسطين، وعجل الله لهم فيه قضاءه، فدمرهم كما توعدهم.

وعليه ه أيضا - يكون اليهود الصهاينة المعاصرون كذابين أدعياء فيما زعموه من انتائمهم إلى إسرائيل، بناء على ما أكده علم الأجناس، والأنثروبولوجيا المعاصرة.

على أننا نميل إلى ترجيح الاحتمال الأول، الذي يتضمن الاحتمال الثاني وزيادة، بدلالة النص «وإن عدتم عدنا»، وذلك اعتماداً على الدرس اللغوي لكلمة (مسجد)، وعلى مدلول (العلو الكبير) المرادف للفساد الكبير، ولا يمكن أن يكون اليهود قد بلغوا في أية فترة من فترات التاريخ ما بلغوا من العلو والإفساد في عصرنا هذا، والقرآن يبشر بتدميرهم: «فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا». [الإسراء / ١٠٤].

وهو أمر أدع القارئ ليتابع معاملة وتفصيلاته في أجزاء هذا الكتاب، مع يقين أن هذا الإفساد لا بد له من نهاية مهما بلغ، تسليحا، وحشدا، ونفوذا، وتحصنا بالقوتين العظيمين، ولكن بشرط أن يعود المسلمون مسلمين، لينفذوا أمر الله بالقضاء على هذا الفساد السرطاني العالمي، وبذلك تتحقق إية الله ووعيده.

«الإيمان الإبراهيمي»

وهناك فكرة سوف يلاحظ القارئ أن المؤلف يركز عليها كثيراً، هي فكرة «الإيمان الإبراهيمي»، أو دين إبراهيم، ويعنى به الأصل الذى ترجع إليه الأديان السماوية القائمة فى عصرنا، وهى بترتيبها التاريخي: «اليهودية، ثم النصرانية، ثم الإسلام»، فهى كلها تنزع إلى أصل واحد هو الحنيفية، دين إبراهيم، أبى الأنبياء: موسى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.

ويرى الكاتب أن هذا الإيمان الإبراهيمي هو الصيغة التى يمكن أن تلتقى عندها مواكب المتدينين بالأديان الثلاثة لتحقيق الوفاق الإنسانى، وإقامة صرح الأخوة الإيمانية.

كما يرى أن للإيمان اليهودى رسالة عالمية هى ضد الروح الصهيونية القومية. وهو يعنى على المسلمين أنهم لا يعرفون جوهر الروحية اليهودية، أو النصرانية، فهم يجهلون تماماً محتوى الكتب المقدسة، لأنهم لا يقرءونها، ولا يدرسونها...

والواقع أن الإنسان المسلم تحكمه فى هذا المجال عدة اعتبارات: أولها: أن فكرة (الإيمان الإبراهيمي) فكرة غامضة مبهمه، نظراً إلى أن دين إبراهيم: (الحنيفية) لم يكن سوى مجرد فكرة عن الوحدانية، لم تعقب شريعة ولا نظاماً، وإنما هى ارتبطت بذلك النبي العظيم الذى جاب أنحاء الشرق، من العراق، إلى الشام، إلى مصر، إلى مكة، يحمل فى قلبه هذا الإيمان بالإله الواحد، ويحمل فى إهابه بذرة الأمة، التى جعلها الله فيه بالقوة: «إن إبراهيم كان أمة»، قبل أن تخرج إلى حيز الفعل، فى سلالة تملأ السهل والجبل الآن، من المحيط إلى الخليج.

وحاجة البشرية في عصرنا إلى الإيمان ليست مجرد حاجة إلى فكرة بسيطة مجردة عن (الوحدانية)، بل هي حاجة إلى نظام ينبع من هذا الإيمان، وهو مالا تملكه الخيفية، ولا اليهودية ولا النصرانية، وإنما يملكه الإسلام وخده باعتباره إيديولوجية شاملة مستوعبة لحاجات الإنسانية ومطامحها، منظمة لها في كل زمان ومكان، وهذا هو السر في أن الماركسية اجتاحت مواقع الديانتين في أوروبا، على حين لم يثبت أمامها سوى الإسلام.

وثانياً: أن مما يؤكد هذا الملاحظ عن (الإيمان الإبراهيمي) ما ورد عن رسول الله ﷺ من أنه كان يتحنث قبيل مبعثه في غار حراء على «دين إبراهيم»، ولو أننا تساءلنا عن جوهر هذا التحنث ومضمونه فلن نجد له في وثائق العصر الجاهلي سوى هذه العبارة التي تسميه، دون أى تفصيل يدل على حقيقته، ولعلنا نقنع بكلمة (التأمل) تفسيراً له مجملاً، وتذكيراً يشير إلى ذلك الحوار المتأمل الذي قصه القرآن حكاية عن نبي الله إبراهيم في آيات من سورة الأنعام: «وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل - رأى كوكبا قال: هذا ربي، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال: هذا ربي، فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي، هذا أكبر، فلما أفلت قال: يا قوم إني برئ مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» [الأنعام/ ٧٥-٧٩].

فهذا هو مضمون التأمل، ولكن يبقى أن محمداً حين كان متأملاً في الغار لم يكن يعرف أيضاً هذه الصورة عن تأمل إبراهيم، فالأمر - في ظننا - كان مجرد اعتزال للخلق، وانتظار لجلاء الحق، في صمت عميق، ولا شيء أكثر من هذا. فهل ذلكم هو ما يُدعى المسلمون إلى الرجوع إليه تحقيقاً للوحدة أو الوفاق بينهم وبين يهود عصرهم ونصاراه؟!.

وثالثها: أن للمسلم موقفا ثابتا من الكتب المقدسة التي يدعو إلى قراءتها الأستاذ جارودى، ذلك أن القرآن صرح في أكثر من آية بأن هذه الكتب حرفت وزيفت، وخاض فيها الوضاعون والكذابون - هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قرر القرآن أنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، فكل حق في هذه الكتب قرره القرآن وأقره، وما عدا ما قرره القرآن فهو باطل من القول وزور، في اعتقاد المسلم.

فإلام يُدعى المسلم إذن ليعرفه من وجوه الحق في هذه الكتب؟!.

فإذا أضيف إلى ذلك ما أثبتته النقد الحديث، مما ركز عليه الأستاذ جارودى وأكده في مواضع كثيرة من هذا الكتاب، وهو تطرق الاضطراب والاختلاق إلى نصوص الكتب المقدسة، ولا سيما فيما يتعلق بالأنبياء والعقائد، وما حفلت به من أساطير وخرافات، وأكاذيب وأغاليط، ومواكب دموية بشعة، تعتبر إسرائيل المعاصرة طبعة مكررة منها - كان لنا أن نتساءل عن ماهية تلك الروحية اليهودية التي يمكن المسلم أن يلتبسها من قراءة هذه الكتب، والتعرف إلى تلك الأسفار؟، ونتساءل أيضا عن علاقة هذه الروحية بالإيمان الإبراهيمي المجرد، ولقد تجاوزته بألف مجزرة ومجزرة، عبر التاريخ، بدءا بيشوع وشاءول، وانتهاء بإسرائيل الصهيونية المعاصرة؟؟.

أعتقد أنه من الخير للمسلم أن يقرأ الروحية اليهودية في الواقع الإسرائيلي الذي خلقتها الصهيونية السياسية، وحشدت فيه يهود العالم أجمع، فهذا الواقع هو التوراة والتلمود، والعهد القديم - الجديد لإسرائيل، وهو وثيقته على المستوى الروحي اللعين الذي بلغته في عصرنا.

ورابعها: أن الاشتغال بدراسة الكتب المقدسة قبل القرآن هو من قبيل الاهتمام بالثقافة المقارنة التاريخية والأثرية، وهو اهتمام برع في تقديمه الأستاذ جارودى، كما عكف عليه عدد وافر من المتخصصين المسلمين الذين استخرجوا به الكثير من المادة لكتاباتهم النقدية، وإن شاب أعمالهم بعض الأحكام المتسرعة، والتعميم غير العلمى، ولكن ليس معقولا أن يُدعى المسلمون كافة إلى أن يضعوا هذه الكتب بين أيديهم ليلتمسوا شيئا من (روحيتها) على ما يراه الأستاذ جارودى، في حين أن القرآن، كتابهم يغنيهم

عن ذلك كله، فهو النبع الفياض بالروحانية الصافية، وهو المعبر عن إرادة الله سبحانه: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» [هود/ ٢].
في حين أن ما أثبتته المؤلف من تعرض الكتب السابقة للتحريف يطمس روحيتها، أو على الأقل يجعلها موضع شك في نظر القارئ المحايد، ولا سيما إذا استوعب هذا الكتاب!!.

وخامسها: وهو لا يقل أهمية عن الملاحظات الأربع السابقة - أن الدعوة إلى الإيمان بالإبراهيمي) ليست بالأمر الجديد على أسماعنا، بل هي في الحق ترديد لنشيد قديم طالما غناه من قبل جارودي جماعات وأفراد، لم يكونوا للأسف موضع ثقة مطلقا من جانب المسلمين.

وقد أوردت بعض الدراسات الحديثة معلومات عن حركة التوفيق بين الإسلام والنصرانية، ومن ذلك ما جاء في كتاب: (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٣١٩ وما بعدها): فقد جاء في مذكرات بلنت - (وهو محام عاش بمصر، ولد عام ١٨٤٠ م، وتوفي عام ١٩٢٢ م) - قوله على لسان الشيخ محمد عبده:

«في أثناء نفسي في دمشق سنة ١٨٨٣ كان أحد القسس في إنجلترا، واسمه إسحاق تيلور، يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية، على أساس فكرة التوحيد الموجودة في الإسلام، والموجودة عند الكنيسة الإنجليكية، وكان لي صديق فارسي «اسمه مرزا باقر»^(١) يعتقد إمكان تحقيق هذه الفكرة».

ويروى الشيخ حمزة فتح الله أن أحد الفرنسيين زار مصر في أوائل هذا القرن، وأخذ يفاوض أعلام الإسلام في فكرة توحيد الأديان».

(١) مرزا باقر كان مسلما، ثم تنصر واحترف التبشير، ثم زعم أنه تاب وعاد إلى الإسلام، وأخذ يدعو إلى التآليف بين الإسلام والمسيحية، (الاتجاهات الوطنية ٣١٩/٢ - نقلا عن تاريخ الأستاذ الإمام - لمحمد رشيد رضا).

وقد طرحت مجلة الهلال، عدد مارس ١٩٣٩ فكرة توحيد الأديان في استفتاء، وكان مما نشرته آراء للمفكر الفيلسوف محمد فريد وجدى، والقمص سرجيوس، والشيخ محمد عرفه، والقس إبراهيم سعيد... الخ.. وكلهم رفضوا الفكرة وأدانوها».

وقد نشطت هذه الدعوة في بيروت عام ١٩٥٣م، ثم في الإسكندرية عام ١٩٥٤م، على يد جماعة من الأمريكان دوى الميول الصهيونية، حتى أصدر سماحة الحاج الشيخ أمين الحسينى، مفتى فلسطين السابق بيانا أكد فيه صلة القائمين على هذه الدعوة بالصهيونية العالمية.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلم يعرف من تعاليم البهائية الكافرة زعمها إمكان التوفيق بين جميع الأديان المختلفة على أساس جمع المعقول من كل الأديان!!.

كما يعرف المسلم أيضا أن للماسونية نوعا من النشاط في هذا الاتجاه، بما يتفرع عنها من صور وأشكال الروتارى والليونز والتسلح الخلقى، وهذه كلها تنظيمات غربية تعمل في خدمة الاستعمار والصهيونية بأسلوب ماكر خبيث.

ولنقرأ مثلا ذلك المنشور الذى وزع بالبريد العالمى بتوقيع (هانس فيشر بارنيكول) مدير معهد بحوث الثقافة الدولية، وقد وصلتنا نسخة من هذا المنشور، وجاء فيه ما نصه:

«لقد حاولت بدعم من أصدقاء عرب يغلبون الموضوعية عن العاطفة شرح المبادئ والترايب التى تتبعها وفقا للائحة المعهد، مؤكدا على أن رائدنا الوحيد فى سبيل إرساء أسس متينة للعمل المشترك والموضوعى هو توحيد كل الطاقات الجديدة والكفاءة، وجمع شملها بغض النظر عن الديانة والجنس والمجتمع الذى ينتمون إليه».

ثم يقول: «ترانى الآن منكبا على تدوين كتاب هو عبارة عن تأملات تاريخية دينية وفلسفية حول المصير المشترك «لذرية إبراهيم الخارجة من الطاعة» وهى تأملات تحاول فهم التوراة والإنجيل والقرآن على أنها شواهد للوحى الإلهى» أ. هـ ١١١٩.

فأى وحى إلهى تشهد به هذه الكتب التى لا علاقة لها بالأصول الموحدة ١٩.

وبرغم ما فى هذه العبارات من تعميم وسذاجة فإن مجرد المحاولة يعنى - عند التسليم بها - أن يضع المسلمون كتابهم الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» على قدم المساواة مع كتب هى من وضع القرون، وهى محشوة بالأساطير وبالكاذب على أنبياء الله ورسله، على ما يقرره النقد الحديث، وهو تنازل لا يملك المسلمون أن يقدموا عليه، كما أن من يدعو إليه يبرهن على التباس الأمور فى عينيه إن كان صادق النية، أو هو ملثاث العقل، ضال عن سواء السبيل إن كان غير ذلك.

والمستفيد على كل حال هو عالم الاستعماريين الغالبين، إذ يجدون أساطيرهم وقد ركبت دنغاياهم فخدرت المغلوبين من المسلمين، وهم أتعس أبناء إبراهيم. إننا إذا أدركنا ذلك كله عرفنا أن الدعوة إلى «الإيمان الإبراهيمى» ليست جديدة، ولا هى من ابتداع الأستاذ جارودى، فهو لا يحمل فيها وزرا.

وعرفنا أيضا أن تاريخها الذى يظهرها عبر العصور المختلفة فى هيئات وأشكال شتى يجعلها ضعيفة التأثير فى الوجدان المسلم، إن لم يضعها موضع الشك والارتياب لديه.

وما نظن أن الأستاذ جارودى حلقة من حلقات هذه الفكرة من الناحية التاريخية، فنحن نجلّه عن هذه المكانة، ونعتقد أنه انطلق إليها بحسن نية، وسلامة قصد، وهو موقن أنها لا يمكن أن تظفر بإجماع المسلمين، أو النصرارى، أو اليهود، أو هم جميعاً.

وأقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الدعوة إلى الإيمان الإبراهيمي أنها توجد ما يشبه أن يكون موقفاً رابعاً، أو دينا رابعاً يضاف إلى الأديان الثلاثة، كما يضاف السَّبْطُ الثالث عشر من الصهاينة المعاصرين إلى الأسباط الاثني عشر، وما هو منهم، دينا يعمد دعائه إلى تَلْفِيْقِهِ، ثم لا يبلغون به ما بلغ نبي بدعوته، فلا نبي بعد محمد ﷺ، وحينئذ لن يكون إلا من قبيل الوصف لأصحاب الكهف، [أنظر الجملة الأولى من الآية ٢٢ من الكهف].

إن دين إبراهيم هو دين الإسلام، أى: الخضوع لله رب العالمين، وهذا المفهوم (العالميني) للإسلام لم يعرفه اليهود، الذين زعموا أن (يَهْوَهُ) أو الرب - إله خاص بهم، إله قومي تقتصر رحمته على بنى إسرائيل دون غيرهم من الأميين.

وجين جاء عيسى بن مريم عليه السلام مرسلًا، ليهدى خراف بنى إسرائيل الضالة - كذِبته الخراف، ونطحته كثيرًا، ثم أقدمت على محاولة صلبه، ونقول: محاولة صلبه، ولا نؤمن - نحن المسلمين - بأنه صلب حقا، بنص القرآن الذى يقرر:

«وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن شبه لهم» [النساء/١٥٧].

وإذا كانت عقيدة المسلم: (أن المسيح عيسى بن مريم لم يصلب) - فإنه يصطدم بعنف مع العقيدة النصرانية التى ترى: (أن المسيح عيسى بن الله صلب) - فكيف يجمعهما الإيمان الإبراهيمي؟.

لقد كانت الحركة النبوية التى انبثقت عن إبراهيم محصورة، أو شبه محصورة فى ذريته من بنى إسرائيل حتى نهاية النصرانية، إلى أن جاء محمد من بنى إسماعيل، مرسلًا بالهداية العامة (العالمينية)، التى شملت كل الأجناس من بنى الإنسان، فتجاوز القومية، وأكد بشريته، وأعلن انتصار العقل الإنسانى.

فالدعوة إلى الإيمان الإبراهيمي - إذا ما أخذت معناها المحمدى الحق - هى دعوة إلى الإسلام، بكل معطياته، وهو ما قرره القرآن فى قوله «إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبى، والذين آمنوا، والله وليُّ المؤمنين» [آل عمران/٦٨] وهى إذن أخرى أن توجه إلى معتققي الديانتين الأخرتين لينضموا إلى موكب التوحيد الإسلامى الذى جاء به إبراهيم، وتآلق على يد

محمد ﷺ، دون أن تشوبه شائبة من تحريف، أو تزيف أو وضع، أو رواسب عقائدية.

ولعل هذا هو ما يؤمن به الأستاذ جارودي الذي يدعو إلى حوار الحضارات من منطلق إسلامي، وهنا أهدى إليه أغنية روحية للهاخام مائير كاهانا، زعيم حركة كاخ، وهي أغنية يؤيد مضمونها، ويقف وراء الهاخام في إنشادها ٤٢٪ من الشيبة الإسرائيلية، إن لم نقل ٩٩٩, ٩٩٪ من الشعب الإسرائيلي.

قال الهاخام [فيما نشرته صحيفة أخبار الخليج عدد ٢٦/٢/١٩٨٦]:

إلى الكلب بن الكلبة الكبيرة

العربي الوسخ، راعي الكلاب

الكلاب الكبيرة، أبناء الكلاب

في قرية الكلاب الكبيرة، أم الفحم

محمد هاشم^(١)، الكلب الكبير

ابن الكلب الكبير

أيها العربي القذر، كيف حالك ياوسخ؟!

سنأتيكم عما قريب.

وسنذبحكم أطفالاً ونساء وشيوخاً ورضعاً

من الطفل وحتى الشيخ، مرة واحدة

سنذبحكم، ونقطعكم إلى قطع من اللحم

مناسبة كطعام للحيوانات

في حديقة الحيوانات التوراتية

في المدينة المقدسة، أورشلیم

العرب للدول العربية

واليهود لأرض صهيون

وإلى اللقاء قريباً، ودواؤكم من حركة كاخ

مائير كاهانا

(١) لاحظ اختيار الاسم الشريف في هذا السياق لتوقن أن اللعنة قليلة عليهم، ومأواهم النار وبئس متوى الظالمين.

في هذا الضوء يجب أن تقرأ الأجيال مستقبل العلاقات بين جناحي أبناء إبراهيم، فتتعرف على سمات روحية عفنة، تنز بالقيح والصدید، وبالحدق الطافح ذى الجذور البعیدة فى التاريخ، والعميقة فى الأنفس، والضاربة فى الكلمات، والمعلنة فى الأهداف والمرامى، تحفظها أجيال الصهيونية، وتغنيها طواير الأطفال فى مدارس إسرائيل.

وأخيراً، وليس آخراً، فهذه صورة قدمتها لمقابلة للصورة التى حرص المؤلف على تقديمها للقارئ، أو هى فى الحق مكملتها، وقد قلت فى مقدمة هذه المقدمة: إن الكتاب صرخة مدوية، وانفجار هائل، وهو فى الحق جدير بأن يوصف بما هو أعظم من ذلك تصويراً لقيمتة، لو أطاقت الكلمات، فما أظن أن فلسطين ظفرت بمثل هذه الدراسة من قبل، ولا أعتقد أن أثر الكتاب فى نفس قارئه سوف يقل عن أثره فى نفس مترجمه..

لقد ذكرت بعد أن انتهيت من ترجمته خبراً قرأته عن صلاح الدين الأيوبي أنه ما كان يُرى مبتسماً قط، فلما سئل عن ذلك قال: إني لأستحيى من الله أن يرانى مبتسماً، وبيت المقدس فى أيدي أعدائه من الصليبيين...

ولقد حرر صلاح الدين القدس، وطهر البقاع كلها من رجس الغزاة، وأخشى ما تخشاه الصهيونية أن يبعث صلاح الدين من جديد... فهأهى ذه تغرقنا فى العبث والجون واللامبالاة، وأوضاع المسلمين والعرب الراهنة تحمى الوجود الإسرائيلى فى فلسطين والقدس، وتؤمن استمراره بأفضل مما يؤمنه السلاح والجنود، بل والأسلحة النووية، فهم لا يقدررون إلا بعجزنا، ولا يأمنون إلا بتشرذمنا وتنازعنا، ونحن ضاحكون هازلون.

ولقد يصادف القارئ لهذا الكتاب الخطير مجموعة من التعبيرات ذات الأصل الدينى الغربى، من مثل «اشرك الإنسان فى حياة الرب»، ومثل قوله نقداً للمسيحية، وهو نقد من منظور مسيحي

«إن تلاميذ يسوع يتنكرون له، أو على الأقل يتعدون عنه، حتى يصمت فى قاع الموت فى أبشع صورة، صورة تعذيب العبيد الآبقين: الصلب».

وهى تعبيرات تختلف كثيراً عن منهج الإسلام، وتتصادم مع مقرراته، ولكننا آثرنا نقلها بأمانه حتى لا نزيف صورة المؤلف على نحو لا يرضاه، وإن كنا نبادر إلى تقرير عدم التسليم بمضمونها، ونؤمل أن يدرك الأستاذ جارودى صواب موقفنا. فإذا تجاوز القارىء أمثال هذه الهنات فإنه ولا شك واجد في الكتاب أخطر ما كتب في هذا القرن ضد الصهيونية، وقد كتب انتصاراً للمسلمين، وللمقاومة الفلسطينية.

ولجارودى موقف فذ في هذا الصدد، فهو يحارب معاداة السامية من منطلق عداوته للصهيونية، بعد أن فضح تحالفهما خطة وهدفاً، وإن كانتا متناقضتين متعاديتين في ظاهر الأمر.

ولسوف يذهل القارىء وهو يشهد التحالف العجيب بين هتلر وإيجمان، وبين الصهاينة ممثلين في زعمائها الأحياء: بيجن وشامير وغيرهما، رغم أنهم خدعوا العالم، وصدعوا رأسه بأكاذيب الاضطهاد الهتلري، وهو في الحقيقة، تنفيذ لاتفاق جهنمي شيطاني بين أجهزة النازية وأجهزة الصهيونية السياسية.

ولسوف يستمتع القارىء كثيراً، وهو يتابع فصول الكتاب النقدية، ومعالجته لمؤامرة: (بروتوكولات حكماء صهيون)، وكيف أنها في الحقيقة ثمرة جريمة سرقة لأحد الكتب التي ألقت ضد نابليون الثالث، ثم زيفت بإدخال بعض التعبيرات واستبدال بعض الرموز، على يد المعادين للسامية، خدمة للصهيونية، وترويجاً لإرهابها الفكري.

ولسوف يذهل القارىء أكثر وأكثر وهو يتابع وصف المجازر التي خططها الصهاينة لليهود... نعم.. ذبح اليهود اليهود في أوروبا، بوساطة هتلر، بمنطق انتقائي دارويني، ميكيا فيلي انتهازي، بشع، في أفظع جريمة سجلها تاريخ الإنسان، فعلوا ذلك ثم صرخوا ولطموا ومزقوا الأثواب، ولطخوا وجوههم بالسواد والطين على ضحاياهم... مطالبين بتعويضهم في أرض فلسطين!!.

فيا فلسطين، من أرض قُتِلَ أهلها بغياً وعدواناً، وتعويضاً عن جرائم ارتكبت بعيداً عنها بآلاف الأميال... والضحايا والمجرمون هم عنها غرباء... غرباء... أو كما قال عمر حين طعنه المجوسى. قالها كلمة مع آخر أنفاسه: يا لله للمسلمين..

القاهرة في ٢٨ / ٣ / ١٩٨٦

عبد الصبور شاهين

مكتبة
دار التراث
٢٢ شارع الجمهورية - القاهرة

مطابع الفخر الاسلامي